التوكل على اللّه

obeikandl.com

التوكل على الله

إن للتوكل على الله تعالى منزلة عظيمة في الإسلام؛ يلحظها من تأمل النصوص الواردة في القرآن الكريم؛ حيث يقول تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ . . .﴾ (الفرقان: ٥٨). في هذه الآية أمر من الله تعالى لنبيه ﷺ أن يتوكل عليه سُبحانه وتعالى؛ وألا يركن إلا إليه؛ لأنه الحي الذي لا يموت؛ وهو القوي القادر سُبحانه وتعالى؛ ومن يتوكل عليه ﷻ فهو حسبُه؛ أي كافيه ومؤيدُه وناصرُه؛ ومن توكل على غير الله؛ فإنما يتوكل على من يموت ويفنى؛ والضعف والعجز يعتريه من كُل جهة؛ ولأجل ذلك فالمُتوكِّل عليه يضيع ويزيغ؛ وكُل من اعتمَد على غير الله فقد ضل سعيه . . . فدلّ ذلك على فضل التوكل على الله ﷻ وتعليق القلب به سبحانه.

وقد حَضَّ الله عباده المُؤمنين على التوكل في مواضع عديدة من الكتاب العزيز؛ وبيَّن سُبحانه ثمراته وفضائله . . . ومن ذلك قوله سُبحانه: ﴿. . . وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (المائدة: ٢٣)؛ وقوله ﷻ: ﴿. . . وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ (التوبة: ٥١)؛ وقوله تعالى: ﴿. . . وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥ . . .﴾ (الطلاق: ٣)؛ وقوله ﷻ:

﴿ . . . فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (آل عمـــران: ١٥٩)؛ وقال سُبحانه واصفاً عباده المُؤمنين في معرض الثناء والمدح ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ (الأنفال: ٢).

والتوكل علي الله وتفويض الأمر إليه سُبحانه يُعتبر من أعظم الأسباب التي يتحقق بها المطلوب ويندفع بها المكروه؛ وكُلما تمكنت معاني التوكل علـي الله من القلوب تحقق المقصود أتم تحقيق؛ وهذا هو حال جميع الأنبياء والمُرسـلين؛ ففي قصة نبي الله إبراهيم عليه السلام عندما قُذف في النار؛ فلقد روى أن جبريـل قـد أتاه قائلاً: ـ ألك حاجة . . . ؟

قال: ـ أما لك فلا . . . وأما إلى الله فحسبي الله ونعم الوكيل.

فكانت النار برداً وسلاماً عليه؛ ومن المعلـوم أن جبريـل كـان بمقـدوره أن يُطفئ النار بطرف جناحه؛ ولكن ما تعلق قلب إبراهيم عليه السلام بمخلوق في جلـب النفع ودفع الضر.

نفس الكلمة رددها الصحابة الكرام يوم حمراء الأسـد صـبيحة يـوم أُحـد؛ حيـث قـال تعـالى: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ . . . ﴾ (سورة آل عمران: ١٧٣ـ ١٧٤).

ولما توجه نبي الله موسى عليه السلام تلقاء مـدين ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ

﴿ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ (سورة القصص: ٢٣ـ٢٤)؛ أوقع حاجته بالله فما شقي ولا خاب؛ وتذكر كُتب التفسير أنه كان خاوي البطن؛ لم يذق طعاماً مُنذ ثلاث ليال؛ وحاجة الإنسان لا تقتصر على الطعام فحسب؛ فلما أظهر فقره لله؛ ولجأ إليه سُبحانه بالدعاء؛ وعلق قلبه به جل في علاه ما تخلفت الإجابة عنه؛ ويقول تعالى: ﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ . . . ﴾ (سورة القصص: ٢٥)؛ وكان هذا الزواج المُبارك من ابنة شُعيب؛ ونفس الأمر يتكرر من نبي الله موسى؛ فالتوكل سمة بارزة في حياة الأنبياء عليهم السلام لما سار نبي الله موسى ومن آمن معهَ حذو البحر؛ أتبعهم فرعون وجنوده بغياً وعدواً؛ فكان البحر أمامهم وفرعون خلفهم؛ أي إنها هلكة مُحققة؛ ولذلك قالت بنو إسرائيل: ـ

ـ إنا لمُدركون.

فقال نبي الله موسى: (كلا إن معي ربى سيهدين).

قال العُلماء: ما كاد يفرغ منها إلا وأُمر أن أضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم؛ فكان في ذلك نجاة موسى ومن آمن معه؛ وهلكة فرعون وجنوده؛ ولذلك قيل: فوض الأمر إلينا نحن أولى بك منك؛ إنها كلمة الواثق المطمئن بوعد الله؛ الذي يعلم كفاية الله لخلقه: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ . . . ﴾ (سورة الزُمر: ٣٦).

الفرق بين التوكل والتواكل

قد تنخرق الأسباب للمُتوكلين على الله؛ فالنار صارت برداً وسلاماً على إبراهيم؛ والبحر الذي هو مكمن الخوف صار سبب نجاة موسى ومن آمن معه؛ ولكن لا يصح ترك الأخذ بالأسباب بزعم التوكل كما لا ينبغي التعويل على الحول والطول أو الركون إلى الأسباب؛ فخالق الأسباب قادر على تعطليها؛ وشبيه بما حدث من نبى الله موسى ما كان من رسول الله ﷺ يوم الهجرة؛ عندما قال أبو بكر ﷺ: "لو نظر أحد المُشركين تحت قدميه لرآنا".

فقال له النبي ﷺ: (ما بالك باثنين الله ثالثهما؛ لا تحزن إن الله معنا).

وهذا الذي عناه سُبحانه بقوله: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا . . .﴾ (التوبة: ٤٠).

والأخذ بالأسباب هو هدى سيد المُتوكلين على الله صلوات الله وسلامه عليه في يوم الهجرة وغيره؛ إذ عدم الأخذ بالأسباب قدح في التشريع؛ والاعتقاد في الأسباب قدح في التوحيد؛ وقد فسر العُلماء التوكل فقالوا: ليكن عملك هُنا ونظرك في السماء.

وفي الحديث عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رجل: يا رسول الله أعقلها

وأتوكل ؛ أو أطلقها وأتوكل ؟ قال : "اعقلها وتوكل" رواه الترمذي وحسنه الألباني ؛ وأما عدم السعي فليس من التوكل في شيء ؛ وإنما هو اتكال أو تواكل حذرنا منه رسول الله ﷺ ؛ والتوكل على الله يحرص عليه الكبار والصغار والرجال والنساء ؛ يحكى أن رجلاً دخل مسجد النبي ﷺ بالمدينة فرأى غلاماً يُطيل الصلاة ؛ فلما فرغ قال له : ابن من أنت ؟ فقال الغلام : أنا يتيم الأبوين ؛ قال له الرجل : أما تتخذني أباً لك ؛ قال الغلام : وهل إن جعت تطعمني ؟ قال له : نعم ؛ قال : وهل إن عريت تكسوني؟ قال له : نعم ؛ قال : وهل إن مرضت تشفيني ؟ قال : هذا ليس إلي ؛ قال : وهل إن مت تحييني ؛ قال : هذا ليس إلى أحد من الخلق ؛ قال : فخلني للذي خلقني فهو يهدين والذي هو يُطعمني ويسقين ؛ وإذا مرضت فهو يشفين ؛ و الذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين ؛ قال الرجل : آمنت بالله ؛ من توكل على الله كفاه .

وفي قصة الرجل الذي كان يعبد صنماً في البحر ؛ والتي نقلها ابن الجوزي عن عبد الواحد بن زيد دلالة على أن التوكل نعمة من الله يمتن بها على من يشاء من خلقه حتى وإن كان حديث العهد بالدين ؛ فهذا الرجل لما جمعوا له مالاً ودفعوه إليه ؛ قال : سُبحان الله دللتموني على طريق لم تسلكوه ؛ إني كُنت أعبد صنماً في البحر فلم يضيعني فكيف بعدما عرفت الله ؛ وكأنه لما أسلم وجهه لله طرح المخلوقين من حساباته ؛ فغنيهم فقير ؛ وكلهم ضعيف وكيف يتوكل ميت على ميت : (فتوكل على الحي الذي لا يموت وسبح بحمده) . . . وفي الحديث : ـ لو أنكم توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً . . . رواه أحمد والترمذي وقال

(حسن صحيح). وكان من دُعاء رسول الله ﷺ: (اللهم أسلمت وجهي إليك وفوضت أمري إليك وألجأت ظهري إليك رغبة ورهبة إليك لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك). رواه البخاري ومسلم وكان يقول: (اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت وإليك أنبت وبك خاصمت؛ اللهم إني أعوذ بعزتك لا إله إلا أنت أن تضلني؛ أنت الحي الذي لا يموت والجن والإنس يموتون). رواه مسلم؛ وكان لا يتشائم من شئ صلوات الله وسلامه عليه؛ وأخذ بيد رجل مجذوم فأدخلها معه في القصعة ثم قال: (كُلْ ثقةً بالله وتوكلاً عليه) . . . رواه أبو داود وابن ماجة.

التوكل على الله نصف الدين

ينبغي للناس كلهم أن يتوكلوا على الله ﷻ مع أخذهم بالأسباب الشرعية؛ فالتوكل كما قال ابن القيم: نصف الدين والنصف الثاني الإنابة؛ فالدين استعانة وعبادة؛ فالتوكل هو الاستعانة والإنابة هي العبادة؛ وقال أيضاً: التوكل من أقوى الأسباب التي يدفع بها العبد ما لا يطيق من أذى الخلق وظُلمهم وعدوانهم؛ وقال سعيد بن جُبير: التوكل على الله جماع الإيمان؛ وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون ويقولون: نحن المُتوكلون؛ فإن قدموا مكة سألوا الناس؛ فأنزل الله تعالى: ﴿ . . . فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ . . . ﴾ (البقرة: ١٩٧) . . . وروي أن نبي الله موسى عليه السلام كان يقول: اللهم لك الحمد وإليك المُشتكى وأنت المُستعان؛ وبك المُستغاث وعليك التكلان؛ ولا حول ولا قوة إلا بك . . .

إن الله هو الوكيل؛ الذي يُتوكل عليه؛ وتُفوض الأمور إليه ليأتي بالخير ويدفع الشر؛ كما ورد أن المتوكل هو اسم من أسماء رسول الله ﷺ كما في الحديث: (وسميتك المتوكل).

وإنما قيل له ذلك لقناعته باليسير والصبر على ما كان يكره؛ وصدق اعتماد قلبه على الله ﷻ في استجلاب المصالح ودفع المضار من أمور الدنيا والآخرة... وكمال الإيمان هو الاقتناع التام بأنه لا يُعطي ولا يمنع ولا يضر ولا ينفع سواه؛ ولكم في نبيكم أسوة حسنة وقُدوة طيبة؛ فلابد من الثقة بما عند الله واليأس عما في أيدي الناس؛ وأن تكون بما في يد الله أوثق منك بما في يد نفسك؛ وإلا فمن الذي سأل الله ﷻ فلم يُعطه؛ ودعاه فلم يُجبه وتوكل عليه فلم يكفه؛ ووثق به فلم يُنجه...؟!

إن العبد لا يُؤتى إلا من قِبل نفسه؛ وبسبب سوء ظنه بالله؛ وفي الحديث:

أنا عند ظن عبدي بي؛ فليظن بي ما شاء.

والجزاء من جنس العمل؛ فأحسنوا الظن بربكم وتوكلوا عليه تُفلحوا؛ فإن الله يُحب المُتوكلين... فالتوكل عباده من كمال الإيمان يتبعها صبر ورضا وشكر فهي البداية لكُل هذه المعاني الإيمانية الجميلة التي نفتقدها في عصرنا الحالي والتي لو وجدت لوجدت الراحة والسعادة.

إذا كُنا لا نستطيع التوكل على الله وهو الوكيل؛ فلنقرأ قصة السيدة هاجر زوجة سيدنا إبراهيم ونرى أروع معاني التوكل التي تجسدت في السيدة هاجر حين ولدت سيدنا إسماعيل فاشتدت غيرة السيدة سارة منها وطلبت من

سيدنا إبراهيم أن يُبعدها عنها فذهب بها وبولدها حتى وضعهما حيث مكة اليوم؛ وكان ولدها آن ذاك رضيعاً؛ فلما تركهما هُناك وولى ظهره عنهما قامت إليه هاجر وتعلقت بثيابه وقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتدعنا ها هُنا وليس معنا ما يكفينا ؟!

فلم يُجيبها؛ فلما ألحت عليه وهو لا يُجيبها قالت له : ـ آلله أمرك بهذا ؟

قال : نعم.

قالت : فإذن لن يُضيعنا.

ما هذا التوكل . . . ؟! امرأة ضعيفة وطفل رضيع في صحراء جرداء مُقفرة لا ماء فيها ولا زرع ولا بشر ورغم ذلك إيمان ويقين وصبر ورضا وثقه وحُسن ظن بالله . . . كُل هذا جاء من توكلها على الحي الذي لا يموت . . . وبالرغم من هذا التوكل على الله إلا أنها لم تتواكل ولم تجلس لتبكى وتكتفي بالدعاء؛ ولكن حين نفذ الماء الذي كان معها في السقاء؛ وأخذ وليدها يتلوى من الجوع والعطش انطلقت كراهية أن تنظر إليه لتبحث عن الماء والغذاء؛ فوجدت الصفا أقرب جبل إليها فهرولت إليه واستقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً . . . ؟!؛ فلم ترى أحداً؛ فهبطت من الصفا؛ حتى إذا بلغت بطن الوادي رفعت طرف ذراعها ثُم سعت سعى الإنسان المُجهد حتى جاوزت الوادي ثُم أتت المروة فقامت عليه ونظرت هل ترى أحداً . . . ؟؛ فلم ترى أحداً؛ ففعلت ذلك سبع مرات . . . فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً؛ فإذا هي بالملك عند موضع زمزم؛ فضرب الملك بجناحه حتى ظهر الماء تحت قد الصغير إسماعيل فجعلت تحوطه وتغرف من الماء لتشرب وتروي صغيرها.

ولقد كان السلف الصالح قوماً مُؤمنين حَقَّ الإيمان؛ مُتوكِّلين على ربهم حق التوكل؛ ومع ذلك لم يَتواكلوا ولم يَتغافلوا؛ ولم يَتَثاقلوا عن واجباتهم؛ في الحياة؛ بل عملوا ونَاضَلوا؛ واشتغلوا وكسبوا . . . ولقد كان أبو بكر وعثمان وعبد الرَحمن بن عوف وطلحة تُجَّاراً؛ حتى إن أبا بكر لَمَّا تَولَّى الخلافة أصبح غادياً إلى السوق؛ يَحْمِل أثواباً يُتَاجِرُ فيها؛ فلقيه عُمر وأبو عبيدة؛ فقالا له: أين تُريد ؟

قال: السوق.

قالا: تَصْنَع ماذا وقد وَلِيتَ أمر المُسلمين ؟

قال: فمِنْ أَيْنَ أُطْعِمُ عِيَالي ؟

ثُمَّ فَرَض المسلمون له ما يكْفيه وأولاده حتى يُفَرِّغَ وقته وجُهده لأعمال المُسلمين. ومن الأقوال المأثورة عَنَ العرب قولهم: "تَوكَّل على الله ولا تَتَّكل على غيره" أيْ آمن بالله تعالى؛ وثِقْ بنصره ما دُمْتَ مُتَّبعاً لهَدْيه؛ مُنَفِّذاً لحُكْمه؛ آخذاً بالأَسباب التي شَرَعها لك وهيَّأها أمامَك؛ ثمَ انطلقْ في طريقَك؛ ولا تجعل نفسك عالةً على سواك؛ فالله وَلِيُّ العاملين.